قصة قصيرة

نافذة أخيرة*

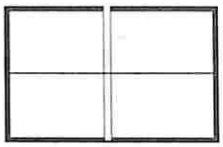

بقلم: طاهر عبد مسلم**

هدأت المدينة فجأة وهي تنساب في غبشها الشاتي ممتدة مثل جزيرة في مدى مجهول ، غلف دروبها الصمت فجأة ، برهة عابرة تخفي، وراءها أشياء وأشياء، ولم تكن تلك المرأة الوحيدة غير وجه واحد وصوت واحد وحيد في حارة كاملة للمستوطنين الذين طوقوا المكان بلغتهم المجهولة وطقوسهم الغريبة، كان عليها أن ترتقي سلما حجريا متهالكا لكي تبلغ مأمنها في منزل استقر في أعلى تلة من التلال التي توزعت عليها بيوت الاستيطان .. تغمر دربها بالتسابيح وأسئلة الرحمة، وتناجي غائبين وغرباء ومهجرين وأمواتا ، تقيم تعاويذ وأورادا وتستحضر معها في ذاكرة مثقلة بالعناء، تستحضر الوجوه والناس في شريط طويل من العناء ، فجأة في هدأة الليل هطلت عليهما صورهم وأسماؤهم ، جارتها وأولادها ، وأحفادها .. مرت على فضاء الذاكرة سحابة قاتمة وريح وبرد واقتلاع وتشرد.. واختلطت عبر مشهدها الخاص قافلة من الناس الذين عصفت بهم الريح والحرب وهم يجرون من خلفهم بقايا أثاث ولوازم عيش مندفعين نحو غيهب جديد وقد سبقتهم رغبة عارمة في العيش وفي الموت أمام الأراضي المحتلة في أن معا .. لم تكن بعقلها الصغير آنذاك لتستطيع أن تجد فلسفة ما لتلك الحالة من الدفاع عن الحياة والدفاع عن الموت، ذلك الإصرار الصامت الناشب كأشجار الأزل في أعماق الناس، كانت جزءا من قافلة المواجهة وهي تسمع بجحافل الحلفاء في ما وراء البحار والأصدقاء الجدد وأراضي الميعاد والهيكل والنجمة، وكل ذلك ما يلبث أن يبدو لوحة على جدار المدينة العتيقة.. لوحة هي مشهد الناس والزمان .. لوحة صخرية تمتد بلا هوادة لتجمع قضية أجيال أخرى .. لم تكن أرض في صمتها الأليف إلا وقفة في الزمان ، وشاهدا على ما جرى .. اكتظت في داخلها رغبة في أن ترى أولئك الناس كلهم، أصاخت في الليل الشاتي الموحش فلم يلتقط سمعها الواهن غير همهمات الغرباء وخطاهم التي تمزق جسد الليل الحالم وهم يدبرون للغد .

تعلمت مرارا أنها القاطن الوحيد في تلة معمورة بالغرباء .. لا تعرفهم ولا تريد أن تعرفهم ولكن تأكد لها أنهم يتمنون ويسعون لرحيلها .. لأنها موجودة في المكان الخطأ .. وليس هم .. ومهما أعلنت مرارا تاريخها الطويل في هذا المكان لم تتلق غير أصوات متشككة تخطط لليوم والغد ولا تعنى بمن كان ، ومن كان بالأمس .

على محراب هذه التلال مر العابرون للشتات والألم.. ودعتهم، كما ودعت المقاومين، أرخت عليهم سدولا من الطمأنينة والراحة والأمان .. كانت ترى من عين خفية كفا مباركة تمسح تلك البلاد والناس .. ولذا أصرت على تسلق ذلك السلم الحجري مرارا مصرحة بوجودها ومصرة على أنها باقية .. ولكنها فجأة بدأت تسمع نداءات من أسفل التل ومن أماكن أخرى تدعو لها بالموت.. وأن يقصر الله عمرها .. وما لبثت أن تلقت وعدا مغريا مقابل نزوحها عن دارها وغمرت نفسها هواجس الضيق وفتحت نافذة ليطل عبرها الدبيب الصامت لعابرين غرباء مضطربي الخطا، مدت كفا راعشة إلى قدح، وشربت شرابا حلوا، واسترخت قليلا ثم دارت على الأركان وهي تمارس ذلك اللقاء اليومي مع متحف الأسرة، الأولاد، الزوج، الأب الكبير، فهي هناك حتى بعد أن انشطر الناس وتكاثروا وامتلكوا في الشتات البيوت وغير البيوت هي هناك .. في الليل الجاثم البعيد .

لا تدري كيف امتدت اليد إلى أداة معدنية باردة بقيت مطمورة في قاع ذلك المتحف .. ذراع طويلة من المعدن المنقوش بأسماء وتواريخ، ذراع طويلة مشهرة كسيف، ذراع طويلة كفوهة مدفع، ذراع طويلة باردة التفت بجسدها المثقل ..

وفتحت بكف راعشة مزلاجا التقم عبوة حمراء .. وما أن هم الغرباء بالاحتشاد خلف بابها وهم يصرخون يدعونها للرحيل .. حتى تراءى لهم كيان آخر طالع من المكان .. كيان تسبقه فوهة نارية .. والغضب العارم يلف المشهد .. عندها لم يعد في هدأة الليل غير نباح بعيد .. بينما هي أغلقت بابها، أغلقت عينين متعبتين ونامت وحيدة كعادتها. ■

* إهداء إلى السيدة (النتشة) التي ما زالت تقاوم وحيدة النزوح من بيتها الشاهد على المأساة .. هناك في مايسمى (حارة اليهود).

** طاهر عبد مسلم قاص واستاذ جامعي مقيم في الأردن.